رفاعة رافع الطهطاوى والتعريب *

للأستاذ الدكتور يوسف عز الدين

السيد رفاعة رافع الطهطاوى علوم الغرب خير وسيلة لرفع جبل من الثقافة والمعرفة لم يتكرر في المستوى العلمي والفكري لبلاده ليفتح عصر النهضة الحديثة، إنه فرد أصلح الأذهان وينمي المدارك بنشر علوم أمة ونبه أجيالاً وأحدث تبدلاً واسعًا الغرب بين أبناء وطنه .

في الساحة الأدبية والفكرية والعلمية واستمر مواصلاً التعريب مع ذهب إداريًا وأصبح طالب علم نهم طلابه عندما أسس مدرسة الألسن الفكر متوقد الهمة وفي فرنسا وجد واختار لها خمسين من الطلاب الذين كثرة في العلوم والفنون والآداب التي يحسنون العربية واللغة الأجنبية لم يدرسها في الأزهر الشريف ، وكان ووضع في منهجها دراسة التركية يظن أنه درس علوم عصره كلها والفارسية إضافة إلى الإنجليزية فأحس بحاجته إلى هذه المعارف والفرنسية والإيطالية، ورأى فيها نبعًا الجديدة ، وضرورة نقلها إلى أمته ثرًا، ومركزًا مهمًا للتعريب وفضلها ترجمة وتعريبًا، إنه وجد اتساعًا كبيرًا على إرسال البعوث إلى الغرب، في المعارف التي قدمت الغرب وأضاف علومًا تساعد الطالب على وطورت حياته فعرب ما رآه جديرًا اتساع فكره، واطلاعه على العلوم بتقدم وطنه، واحتك بالعلماء وساجلهم المفيدة كالتاريخ والجغرافية والحسلب ليسبر غور الحضارة ويتعرف على. وعندما يجد الطلاب صعوبة في جذور الفكر الغربي وأسباب تطوره الجمل أو وضع مصطلح كان يسعفهم الحضاري وازدهاره، لأن في نقل بالنصح وإذا ما انتهى المعرب من

---

* ألقي هذا البحث في الجلسة الرابعة عشرة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأحد ٣ من ذي الحجة سنة ١٤١٩هـ الموافق ٢١ من مارس (أذار) سنة ١٩٩٩م.

مادة كانت تعرض على مراجع ليطلع على دقة التعريب وأصالة اللغة العربية، إنه إنسان صابر سبع عشرة سنة دون كلل أو ملل في هذه المهمة ولم يتوقف حتى عندما نفاه عباس إلى السودان فترجم التليماك لفانلون برغم مصاعب الإقامة والبعد عن الأهل والشعور بالإحباط من هذا النفي فقال:

على عدد التواتر معرباتي
تفي بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل
ومنتسكو يقر بلا تمادي
وقد فارقت أطفالاً ضعافًا
بطهطا دون عودي واعتيادي

ولما توفي عباس وجاء سعيد عاد إلى مصر وعاد إلى مكانته الأولى وزادت مساحة نفوذه وزاد نشاطه فقد أوكلت إليه أعمال إدارية متعددة ومن أعماله المهمة ترجمة القانون الفرنسي الأساسي (كود نابليون) ووضع المصطلحات القانونية معتمدًا على الشريعة الإسلامية وأحكامها .

تعليم البنات :

في الوقت الذي يصدر أحد العلماء في قطر عربي فتوى (الإصابة في منع النساء من الكتابة) نرى الطهطاوي يبذل جهودا كبيرة يدعو فيها إلى تعليم المرأة لإيمانه بحقها في المساواة مع الرجل فقد قال في (المرشد الأمين للبنات والبنين) بضرورة تعليم البنات لأن التعليم (يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن للمعارف أهلا ويصلح به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمهن في قلوبهم ويعظم مقامهن) .

ويبدو أن زوجة إسماعيل تأثرت به فأسست أول مدرسة للبنات سنة١٨٧٣م فأثمرت البذرة التي بذرها رفاعة في مصر ومن ثم في الشرق العربي، وبالرغم من اهتمام محمد على باشا بالعلوم التي تخدم الجيش فقد عرب الطهطاوي بعض الكتب الأدبية وترجم قصيدة لفولتير في رثاء لويس الرابع

عشر ويبدو لي أن التليماك كان لـــها أهمية كبيرة في هذه المرحلة فقد نقلت إلى التركية التي قالت عنــها جريــدة الزوراء [1] في بغداد إنـــه (تــأليف لطيف مجموع من حكايـــات ظريفــة وضعها لأجل تعليم الصبيان وتفـــهيم الفنــون وترجمــة أجمــل وألطـــف حكاياتها).وسميت (حصة دون قصة)، وطبعت في مطبعة الولاية، في حيـــن أن الطهطاوي سماها (مواقع الأفــلاك في وقائع تليمـــاك) ورآهــا تنشــر الأخلاق والفضائل والسجايا العالية .

الأمور الغربية في فرنسا :

وقد استرعى انتباه الســـيد رفاعـــة أسلوب تناول الطعام فقال في تلخيـص الإبريز[2] (ولم نشعر في أول يــوم إلا وقد حصل لنا أمور غريبة في غالبــها وذلك أنهم أحضروا لنـــا عــدة خــدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ونحو مئـــة كرسي للجلوس عليها لأن هذه البـــلاد يستغربون جلوس الإنســـان على نحو سجادة مفروشة على الأرض فضـــلاً عن الجلوس بالأرض ثم مدوا الســفرة للفطور ثم جاؤوا بطبليات عاليـــة ثـــم رصوا من الصحون البيضاء الشــبيهة بالعجمية وجعلوا قدام كل صحن قدحًا من القزاز وسكينًا وشوكة وملعقة فـــي كل طبلية قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فلفل ثم رصوا حول الطبلية صحنًا كبيرًا أو صحنين ليغرف أحـــد أهل الطبلية ويقسم على الجميع فيعطي لكل إنسان في صحنه شـــيئًا يقطعــه بالسكين التي قدامه ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لابيده فلا يأكل كل إنسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره أو ســـكينة أو يشرب من قدحه أبدًا ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة ومما يشاهد عنـــد الإفرنج أنـــهم لا يـــأكلون أبـــدًا فـــي صحون نحاس ولا في أوانيه أبدًا فهي للطبخ فقط بـــل دائمًـــا يســتعملون الصحون المطلية وللطعام عندهم عــدة من المـــراتب معروفـــة وربما كثرت

(١) العدد ٢/٦٢ سنة ١٢٨٧ هـ، القصة القصيرة في العراق ، ص ٢٣ ، ط ١٩٧٤.

(٢) تراثنا والمعاصرة ، ص ٢٧،٢٨،٣٠،١٠٦، ١٠٧.

وتعددت كل مرتبة منها، فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة ثم بعد باللحوم ثم بكل أنواع الأطعمة كالخضروات والفطورات ثم بالسلطة مثلاً خضر منقوشة بلون السلطة ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكة ثم بالشراب المخدر إلا أنهم يتعاطون منه القليل ثم بالشاي أو القهوة . وهذا الأمر مطرد للغني والفقير كل حسب حاله ثم إن الإنسان كلما أكل طعامًا في صحن غيره أخذ صحنًا غير مستعمل ليأكل فيه طعامًا آخر ثم (إنهم أحضروا لنا آلات الفراش) والعادة أنه لابد أن ينام الإنسان علي شيء مرتفع نحو سرير) [1]

واهتم السيد رفاعة بتعريب القضايا التي تتحدث عن الحرية وأكد واهتم على المساواة التامة بين أبناء الشعب وبأن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف وعليه العمل بالدستور وليس هناك فرق بينه وبين أبناء الشعب لأنهم متساوون الرفيع والوضيع ويقدر ابن الشعب إقامة الدعوى على الملك نفسه (مناهج الألباب) واهتم بتعريب ما تنشره الصحافة التي سماها الجورنالات والجازيتات ، واهتم بالحرية الفردية للإنسان وحرية الانتقال والعمل؛ لهذا قدر الزعيم الفرنسي لا فاييت لأنه ضد الظلم والاستبداد وأكد أن الشعب الفرنسي لا يخاف من السلطة لأنها لا تنفي ولا تحبس ولا تصادر الأموال وهو آمن لأن القوانين تضمن له كل هذا وتصونه من عبث السلطة .

إنها إشارات واضحة ضد الوضع العام في الشرق وعالمه المقيد فهل يمكن الآن أن يؤلف كاتب في هذا العصر ما ألفه رفاعة ؟ وما مصير هذا الكاتب إذا عارض السلطة ؟ لا أدري هل كان محمد علي باشا واسع الصدر فقبل هذه الآراء أم أنه لم يطلع على كتب الطهطاوي في الحرية

(١) تلخيص الإبريز ٢٤ ، وحجازي ١٨٦

الفردية ومقاضاة الحاكم المستبد أمـــام القضاء ، ولا شك في أن آراءه عـــن الظلم والاســـتبداد والحريـــة والحكـــم الفردي أثرت في المفكرين فقد ألـــف الكواكبي كتابيـــه أم القـــرى وطبـــائع الاستبداد متأثرًا بدعوة الطهطاوي فقال في أحد كتبه (الاستبداد يسلب الراحـــة الفكرية فيفني الأجساد فـــوق ضناهـــا بالشقاء فتمرض).

وبعد ذلك بتقدم الأيـــام بـــدأت الجرائد تناقش هذه القضايـــا ونشـــأت فكرة المحافظة والتطور فتتبه الشـــرق وأصبحت مصر مثـــلاً يحتـــذى فـــي القضايا الفكرية والأدبية ولا شـــك أن تعريب الطهطاوي كان المنبع الـــذي ارتوى منه الفكر الحديث .

حركة التعريب والطهطاوي

كانت رغبة مثقفي مصر شديدة للتعرف علىٰ علـــوم الغـــرب عندمـــا احتكت بهم الحملة الفرنسية، فقد شاهد علماؤها التجارب التي يقوم بها علماء المجمع العلمي ومنهم الشـــيخ حســـن العطار وكان واسع الأفق ذكيًا فبهرته تجارب الغرب .

لذلك أوصى تلميـــذه رفاعـــة الطهطاوي بأن يسجل مشاهداته فـــي فرنسا فكتب (تلخيص الإبريز) سـجل فيه بدقة كل ما رآه وسمعه عن الحياة في فرنسا ولم يغفل شيئًا مهمًّا حتـــى إننا وجدناه يذكر المجامع التـــي فـــي باريس وعلماءها وأبرز ما أثـــر فيـــه الحرية الفردية وحرية الانتقال وعـــدم خوف الشعب من الدولة .

ولا أريد في هذه العجالة ذكـــر كل جهوده في التعريـــب والترجمـــة والتأليف فقد استوفت الكتب التي كتبت عنه ما أريد ولكن لابد من ذكر أثـــر هذا الرائد في النهضة الفكرية والأدبية والعلمية في مصر والشرق فقد كـــان طوال حياته يعتمد اعتمادًا كبيرًا علـــى التعريب والترجمة وركز جهوده عليها سواء كانت في مدرسة الألسن أو فـــي قلم الترجمة .

إن إعجابي بصبر هذا الرائـــد

الكبير الذي أحدث حركة كبيرة في مصر أدت إلى نهضتها بالعلوم والآداب والتعليم والصحافة جعلتني أسهم في مؤتمر أقامته جامعة المنيا.

وجدت رفاعة شديد العناية بتقصي المعاني الدقيقة وغلبت عليه هذه الدقة في أسلوبه وبخاصة الكتب العلمية وما كان قادرا على الخروج على السجع الذي كان سمة الحياة الأدبية وكان سهل العبارة واضح الأسلوب دقيقًا في وضع المصطلحات العلمية وضبط أسماء الأعلام الأدباء الذين أخذ عنهم، وقد وجدت شرحًا لطريقة الضبط في كتاب (التشريح العام)[1] يقول فيه:(فيه كثير من الأسماء الأعجمية سواء كانت فرنساوية أو يونانية كأسماء مهرة المشرحين ، وبعض حيوانات قد ذكرت للتبيين ، وأسماء بعض أمراض ومفاصل ، ولعجمتها كان التحريف حال التلفظ بها حاصل ، ولا يمكن النطق بها على حقيقتها إلا بالضبط التام، الذي يستقيم به الكلام، ولا سبيل إلى ذلك إلا بضبطها بالعبارة ، لأن الضبط بالشكل غير مأمون الخسارة، أمرني حضرة ناظر مدرسة الطب الإنساني العام بايرون، أن أضبطها بالعبارة ليسهل التلفظ بها ويهون، وأن أرتبها حسب حروف المعجم لتكون مراجعتها أسهل وأقوم وأحكم).

إن اعتماد رفاعة على التعريب في نقل علوم الغرب وأفكاره وآدابه كان السبب المباشر في نشر الوعي واليقظة الفكرية وبقي طوال حياته مهتمًا به سواء في الكتب المعربة أو في مقالاته في روضة المدارس أو عندما أشرف على الوقائع المصرية وإدارته قلم الترجمة أو مدرسة الألسن ولم تشغله الأعمال الإدارية الكثيرة التي عهدت إليه عن التعريب .

ومن آثار التعريب في الصحافة أن مهد لصدور الجرائد والمجلات فيما بعد، كان رفاعة رائدًا في وضع

(١) تشريح الطب لكلاربولاق وتراثنا والمعاصرة ص ١٠٨ .

المصطلحات العلمية والتعريب من الفرنسية فقد انفرد في وضع المصطلحات فلم نجد فوضى في وضعها إلا عندما كثر المعربون في الأقطار العربية وتنوعت المؤسسات والمجامع وانفرد بعض المعربين بوضع مصطلحات حسب أهوائهم فكثر عددها في مادة واحدة أو مخترع جديد وتناقضت المصطلحات وهذا ما يعانيه مجمع اللغة العربية اليوم في محاولاته الجادة في توحيد المصطلحات العلمية .

لابد من تكريم هذا الرائد في العودة إلى ما ترجم وعرب من الكتب وإبراز المصطلحات التي وضعها وإعادة طبع (قاموس القواميس) وإضافة المصطلحات الحديثة عليه للمقارنة الموضوعية وفي دار الكتب ترقد هذه الكتب على الرفوف فهي كثيرة ومنها:

١-أحسن الأغراض في تشخيص ومعالجة الأمراض تأليف محمد التونسي .

٢-الأزهار البديعة في علم الطبيعة تأليف مسيو بايرون معلم الكيمياء في مدرسة الطب .

وأتمنى جمع مجلة يعسوب الطب الناقصة ودراسة مصطلحاتها التي عربها المختصون بعلوم الطب والتي كان يشرف عليها محمد علي البقلي وإبراهيم الدسوقي .

وأخيرًا نحن في عصر كثرت فيه المخترعات فأرى ضرورة اتساع رقعة التعريب والمساهمة الكبيرة في وضع المصطلحات وتوحيدها فقد عرب رفاعة وجماعته ما يقارب ٢٠٠٠ من الكتب، فكيف نقابل الحركة العلمية الواسعة التي جاءتنا بالحاسوب والصواريخ والإنترنت؟. أمنية أرجو أن تتحقق لتطوير الأمة واللغة ، ولكن من أين لنا المال والرجال والهمة والصبر ؟

يوسف عز الدين

عضو المجمع المراسل من العراق

من مصادر البحث :

١-في الأدب العربي الحديث ، عمر الدسوقي .

٢-تراثنا والمعاصرة، يوسف عز الدين.

٣-الاشتراكية والقومية ، يوسف عز الدين .

٤-أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي ، د. محمود فهمي حجازي.

٥-مناهج الألباب ، الطهطاوي .

٦-طبائع الاستبداد ، الكواكبي .

٧-أم القرى ، الكواكبي .

٨-تلخيص الإبريز ، الطهطاوي .

٩-روضة المدارس .

١٠-يعسوب الطب .

١١-شعراء الوطنية،عبد الرحمن الرافعي.

١٢-تاريخ الأدب الحديث ، عبد الصبور السيد الغندور.